مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٣)، العدد (٤)، ص ص ١٨٦٥-١٩٠٨، (شوال ١٤٤١ هـ / مايو ٢٠٢٠)

"كبد" في القرآن الكريم دراسة لغويّة دلاليّة

د.نهلة عبد العزيز الشقران
أستاذة اللغة والنحو المساعدة
كلية الآداب - قسم اللغة العربية
الجامعة الهاشمية - الأردن

د. رياض رزق الله أبو هولا
أستاذ اللغة والنحو المساعد
كلية الآداب - قسم اللغة العربية
الجامعة الهاشمية - الأردن

ملخص البحث: تهدف هذه الدراسة إلى البحث في دلالة المفردة "كبد" في الآية الرابعة من سورة البلد: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ ، وذلك بالبحث في كتب تفسير القرآن الكريم ومعاجم اللغة من جهة، وربطها بالآيات التي ورد بها الفعل "خلقنا" كافة، ووصف تركيبها من جهة أخرى، ثم عرض ما طرحه المفسرون لمعانيها المحتملة، وما أجمع عليه أغلبهم، من أجل ترجيح المعنى الأنسب، إذ جرت عمليّة البحث في ضوء البنية المعجميّة والتركيبيّة، للآيات التي اشتملت على الفعل "خلقنا"، وخلصت إلى ترجيح معنى "الاستقامة وحسن الهيئة"، مقارنة مع الحيوان الذي يمشي على أربع.

الكلمات المفتاحيّة: *خلقنا، تفسير، تركيب*

المقدمة

عني علماء العربية بدراسة القرآن عناية كبيرة، وحثّوا على فهم الآيات وتفسير مفرداتها اللغوية، فهذا مقوّم أساسيّ من مقوّمات العقيدة الإسلامية، والاهتمام باللغة لم يكن يوماً بمعزل عن الاهتمام بالقرآن، بل هي أساس تفسيره وبيانه، ومنها تنبثق الأحكام وتتّضح الرؤى، حتى إنّ علماء المسلمين عدّوا تعلم اللغة العربية فرضاً واجباً، لأن فهم الكتاب فرض، ولا يفهم إلا بفهم العربية، فلا ريب في أنّ القرآن الكريم حافظ لها، وضامن لبقائها، وهذا الحفظ الرباني للقرآن، هو ما يفسر بقاء العربية حية في النفوس، وهو ما يُوجب على كلّ متخصّص في اللغة أن يدرس كتاب الله منقّباً متفحّصاً، من هنا نظر هذا البحث في آية واحدة من سورة البلد نظرة متأنيّة ربطت بين اللغة والتفسير لسبر غور الدلالة فيها.

وعليه، فقد هدفت الدراسة لعرض آراء اللغويين في مفردة "كبد"، وأثبتت معانيَ عدة للفظة الواحدة، وهذا ما ينسجم مع اللغة وتعدّد أفقها المعجمي والدلالي، ثمّ بيان ما قاله المفسرون في هذا الشأن، وعرض ترجيحاتهم للمعنى اللغوي المقصود، فتبدو المسألة اللغوية مستندة إلى السياق والدلالة لترجيح معنى على آخر، وهذا الأمر هو ما يعرضه البحث في مباحثه الثلاثة، إذ جاء المبحث الأول لوصف المعنى المعجمي اللغوي، بينما انفرد المبحث الثاني بطرح آراء المفسرين، أمّا المبحث الثالث فخُصّص للتحليل اللغوي الدلالي.

اتُبع في البحث المنهج الوصفي التحليلي؛ إذ عرض المعنى اللغوي من كتب المعاجم، ثم رأي المفسرين وبيان اختلاف تفسيرهم لدلالة كلمة "كبد" في قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [١]، للوصول إلى تحليل المعاني ومناقشة الآراء بالاستناد إلى كتب اللغة والتفسير، من أجل ترجيح المعنى الأقرب مقارنة مع الآيات التي تحدثت عن الخلق، لا سيّما أن تعدّد المعنى للفظة لم يشتهر كما اشتهر منها معنى المشقّة والتعب سواء أكان هذا الاشتهار في التفاسير والمعاجم الحديثة أم في الأوساط الاجتماعيّة، لذا ارتأيت في هذه الدراسة أن أبيّن دلالاتها المختلفة، من أجل ترجيح المعنى الذي اتفق عليه أغلب المفسرين، بالاستناد إلى الآيات التي ورد بها الفعل "خلقنا"، وذلك لتكون المفردة "كبد" متلائمة مع الآيات التي اشتملت على الفعل "خلقنا"، فتحقّق اتفاقاً مع المعاني الموجودة في سلسلة آيات الخلق.

(١) البلد، ٤.

المبحث الأول : دلالة "لقد خلقنا الإنسان في كبد" لغة

يناقش البحث دلالة لفظة "كبد" في القرآن الكريم، ثمّ يقارنها مع الآيات التي اشتملت على الفعل "خلقنا"، ليبيّن معنى الكبد في الخلق، وعلاقة الكبد بالإنسان، لذا ارتأيت أن أبدأ بدلالة "كبد"، ثم "خلق"، ثمّ "الإنسان" وفقاً لهدف البحث وما يريد أن يثبته.

- **دلالة كبد**

جاء في معجم العين معنى "كبد" المشقّة "تقول: بعضهم يُكابِد بعضاً. أي يشاقّه في الخصومة. وكابد ظلمة هذه الليلة بكابد شديد. أي: ركب هوله وصعوبته"[١]. أمّا ابن دريد فيبيّن معنى الكبد بقوله: "الكَبَد مصدرُ كَبِدَ يَكْبَد كَبَداً، إذا اشتكى كَبِده. والأكْبَد أيضاً: الواسع الجوف، فرس أكْبَدُ والأنثى كَبْداءُ، وقوس كَبْداءُ: يملأ عِجْسُها كفَّ الرامي إذا قبض عليه. والكُبَاد: وجع الكَبِد. ثم يعرض لمعنى كبد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ فيقول: "أي في شِدَّة. وتكبَّدَ اللَّبَنُ وغيرُه من الشراب، إذا غَلُظَ وخَثُرَ"[٢]. فدلّت المفردة على المشقة والتعب مجازا استناداً إلى معنى الغلظة والتخثر في اللبن، ثمّ يبيّن معنى آخر لكبد بقوله: "تكبدت الشمس في السماء": إذا توسَّطتْها. وكل شيء توسّط شيئاً فقد تكبّده[٣]. أمّا الأزهري فيورد معنى الاستقامة، سواء أكان المقصود به الاستقامة في الهيئة الخارجية المخالفة للحيوان، أم الاستقامة في الرحم، فيعرض لمعنيين آخريين علاوة على الشدة وتوسّط السماء وهما:

---

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، 334/٥ .

(٢) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، ص١٢٩.

(٣) المصدر السابق، ص١٢٨.

"الكَبَدُ: الاسْتواءُ والاستقامة .....وقيل: كَبَدٍ أي خُلق الإنسانُ في بَطْنِ أُمّه ورأسه قِبَلَ رأسها فإذا أَرَادتْ أمُّهُ الولادة انقلب الرأسُ إلى أَسفل"[١]. ويؤكّد معنيي المشقّة ووسط السماء ابن فارس في مقاييس اللغة [٢]، ووافقه الرأي الجوهري[٣]. وهنا تظهر صفة الاعتدال في جمال الخلقة من جهة، وتميّزها عن خلقة الحيوان من جهة أخرى، فتفرّد الإنسان بما وهبه إياه الخالق في الشكل الخاص كما جاء في معجم ابن سيده: "في كبد: أي خلق منتصباً يمشي على رجليه، وغيره من سائر الحيوان غير منتصب. وقيل: في كبد: خلق في بطن أمّه ورأسه قبل رأسها، فإذا أرادت الولادة انقلب الرأس"[٤]، ولا يغفل أيضاً عن معنى توسط السماء: "كبد كل شيء: وسطه ومعظمه وكبد الرمل والسماء، وكبيداتهما، وكبيداؤهما: وسطهما ومعظمهما، وتكبّدت الشمس السماء: صارت في كبدها، وكبد القوس: ما بين طرفي العلاقة"[٥].

يعرض ابن منظور للمعاني السابقة ويذكر معنى الاستقامة بقوله: "وقيل في كَبَد أَي خُلق منتصباً يمشي على رجليه وغيرُه من سائر الحيوان غير منتصب، وقيل في كبد خلق في بطن أُمه ورأْسُه قِبَل رأْسها، فإِذا أَرادت الولادة انقلب الولد إِلى أَسفله"[٦]. ويؤيّد الزبيدي ما جاء به من سبقوه فيقول: "الكَبَدُ(بالتحريك: عِظْمُ

(١) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ٧٤/١٠.

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ١٥٣/٥.

(٣) الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ٥٣٠/٢.

(٤) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، في الكتاب ذكر (استها) وهذا خطأ من ناسخ المحكم، وهو محرف عن (رأسها).

(٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٦) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ٣٧٤/٣.

البَطْنِ) من أَعْلاَه. وكِبدُ كُلِّ شَيْءٍ: عِظَمُ وَسَطِه وغِلَظُه، كَبِدَ كَبَداً وهو أَكْبَدُ... والكَبَدُ: الشِّدَّةُ والمَشَقَّةُ، وهو مَجازٌ، وبه فُسِّر قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[١]، ثم يذكر معنى الاستقامة والاعتدال مقارنة بغيره من سائر الحيوان كما جاء في تهذيب اللغة[٢].

دلالة الخلق

وردت معانٍ عدة للخلق، منها الطبيعة والخُلق، والخَلق، فقال الخليل: "الخليقة: الخَلق والخالق: الصانع، وخلقت الأديم: قدّرته، وإنّ هذا لمخلقة للخير أي جدير به، وقد خلق لهذا الأمر فهو خليق له، أي جدير به"[٣]، وبيّن الأزهري كذلك أنّ الخالق هو الصانع[٤]، ويرى ابن فارس أنّ الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر مَلاسَة الشيء. فأمّا الأوّل فقولهم: خَلَقْت الأديم للسِّقاء[٥]، ويقول ابن سيده: "وخَلَقَ الله الشيء يَخلُقه خَلْقاً: أحدثه بعد أن لم يكن. والخَلْقُ يكون المصدر، ويكون المفعول، وقوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[٦] أي: يخلقكم نطفا، ثم علقا، ثم

(١) الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، ٩/ ٩٢ ؛ وهذا ما رأته معاجم اللغة العربية في المعجم الوسيط، انظر الزيات، أحمد وآخرون، المعجم الوسيط، ٢/٧٧٢.

(٢) انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين،١/٣٤٨ ؛ والجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ٤/١٤٧٠.

(٤) الأزهري، تهذيب اللغة، ٧/١٧.

(٥) ابن فارس، مقاييس اللغة، ٢/٢٣١.

(٦) سورة الزمر، ٦.

مضغا، ثم عظاما، ثم يكسو العظام لحما، ثم يصور وينفخ فيه الروح، فذلك معنى خلق من بعد خلق، في ظلمات ثلاث: في البطن والرحم والمشيمة"[١].

أمّا ابن منظور فيقول في معنى"خَلَقَ" في لسان العرب: "وأَصل الخلق التقدير فهو باعْتبار تقدير ما منه وجُودُها مقدّر وبالاعتبار للإِيجادِ على وَفْقِ التقدير خالقٌ والخَلْقُ في كلام العرب ابتِداع الشيء على مِثال لم يُسبق إِليه وكل شيء خلَقه الله فهو مُبْتَدِئه على غير مثال سُبق إِليه"[٢]، فدلّت اللفظة في معناها الحقيقيّ على إبداع الخالق في خلقه، وتفرّده في أمر لا يضاهيه فيه أحد، وقد تستعمل مجازاً كما في: "خَلَقَ الإِفْكَ خَلْقاً: إِذا افْتَراهُ، كاخْتَلَقَه وتَخَلَّقَه[٣]، ومنه قوله تَعالَى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[٤].

دلالة الإنسان

يعرض معجم العين دلالة معنى إنسان ضمن الجذر "أنس"، فيقول: "الإنس: جماعة من الناس، وهم الأَنس، تقول: رأيت بمكان كذا أَنساً كثيرا، أي: ناساً". "والاستئناس والأنس والتأنّس واحد، وقد أنست بفلان"[٥]، فذكر الإنسان دون الإشارة إلى ما يكابد في حياته مكتفياً بوصف التأنّس به دون مخلوقات الله الأخرى، ويقول ابن فارس: "فالهمزة والنون والسين أصلٌ واحد، وهو ظهورُ الشيء، وكلُّ شيءٍ خالَفَ طريقة التوحُّش. قالوا: الإنْس خلاف الجِنّ، وسُمُّوا لظهورهم. يقال

(١) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٥٣٥/٤.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (خلق)، ٨٥/١٠
(٣) الزبيدي،تاج العروس، ٢٥١/٢٥.
(٤) العنكبوت، ١٧.
(٥) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ٣٠٨/٧.

آنسْتُ الشيء إذا رأيتَه"[١]. و"الواحد إنسيّ وأنسي أيضا بالتحريك، والجمع أناسي. وإن شئت جعلته إنساناً ثم جمعته أناسي، فتكون الياء عوضا من النون. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾. وكذلك الأناسية، مثل الصيارفة والصياقلة. ويقال للمرأة أيضاً إنسان، ولا يقال إنسانة، والعامة تقوله"[٢]. ويؤكّد المعنى ذاته الفيروزأبادي، إذ يقول: "وآنَسَهُ: ضِدُّ أوْحَشَهُ، والشيءَ: أبْصَرَهُ كأنَّسَهُ تأنيساً فيهما، وعَلِمَهُ وأحَسَّ به، والصَّوْتَ: سَمِعَهُ"[٣].

أمّا كتب خلق الإنسان فقد تناولت ألفاظ الخلق، وفقاً لتدرّج الإنسان في سنّه، منذ ولادته إلى آخر مراحل سنّه، فعرضت أسماء جملة الخلق، وهي في تفصيلها للأجزاء تتعرّض إلى أدقّ صفات الأعضاء وخصائصها، فلم تذكر لفظة "كبد" إلّا في حديثها عن أعضاء جوف الإنسان، وكذلك الأكبد[٤].

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة، ١٤٥/١.

(٢) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، ٩٠٤/٣.

(٣) الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ٦٨٣/١.

(٤) انظر الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، كتاب خلق الإنسان، ص١٢٧و١٣١؛ الزجاج، أبو اسحاق ابراهيم بن السري، رسائل في اللغة، ١٩٦٤.

المبحث الثاني: رأي المفسّرين في معنى (كبد)

عرض المفسرون معاني مختلفة للفظة "كبد"، ورجّح بعضهم معنى على غيره، إمّا باعتماد التغليب وفقاً لآراء من سبقه، أو بإعمال ما يدركه عن حقيقة البشريّة، وما خلقها الله له، وفي الأمرين تبقى المسألة مُجتَهداً في تفسيرها، يقبل الاجتهاد الموافقة والمعارضة. وعند البحث في كتب التفسير وجدت أنّ معنى "كبد" لم يخرج عن المعاني الآتية، وفقا لما أجمع عليه المفسرون:

١- المشقة والتعب
٢- حسن الخلقة واعتدال القامة
٣- مكان الخلق وهو السماء
٤- طبيعة الخلق وهي القوة

أولا: المشقّة والتعب:

جاء معنى المشقّة والتعب مجازاً من المعنى الحقيقي للمفردة، كما استعملتها العرب، لذا ورد هذا المعنى في أغلب التفاسير القديمة والحديثة، وقد عرضت لبعض منها، من أجل التدليل على المعنى المقصود، ومن أمثلة هذا ما جاء في تفسير الطبري، وهو قوله: "واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: لقد خلقنا ابن آدم في شدّة وعناء ونصب"[(١)]، فيبيّن أنّ الأمر فيه خلاف، ثم يبدأ في سرد المعاني المحتملة للمفردة، وفقاً لما ورد عن العرب في الاستعمال اللغوي[(٢)]، ثمّ يقرّر أن يختار معنى المشقّة والتعب قائلا: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: قول من قال: معنى

(١) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٣٣/٢٤؛ وانظر الجزائري، أبو بكر، أيسر التفاسير، ٤٠٠/٤؛ ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ٧٨/٣.

(٢) سبق ذكر هذا في المبحث السابق.

ذلك أنه خلق يُكابد الأمور ويُعالجها، فقوله: (فِي كَبَدٍ) معناه: في شدّة. وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب من معاني الكَبَد"[١]، وكذلك الأمر لدى البغوي، إذ يرى في مكابدة الدنيا وشدائد الآخرة سبباً لهذا العناء في لفظة (كبد)، من شدة الخلق والولادة والفطام والمعاش، وما إلى ذلك من شدة وضيق"[٢]. ويفسّر ابن عطيّة معنى الكبد بالمشقّة أيضاً، فقد قال: "وبالمشقة في أنواع أحوال الإنسان فسّره الجمهور"[٣].

يقرّر القرطبي أنّ أصل (الكبد) هو العناء والشدة، فيرى أنّ الله سبحانه وتعالى يقسم بمخلوقاته ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾، ليؤكّد أنّه خلق الإنسان مكابداً لمصائب الدنيا، لذلك يفسّر سبب اختياره بقوله: "يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء، لأنه لا يخلو من أحدهما. أول ما يكابد قطع سرته، ثم إذا قمّط قماطاً، وشد رباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن. ويكابد محناً في المال والنفس،

---

(١) الطبري، جامع البيان، ٤٣٥/٢٤.

(٢) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ٤٣٠/٨.

(٣) ابن عطيّة، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٣٥/٧.

مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مسألة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إمّا في الجنة وإمّا في النار"[١]. وكذلك الحال عند غيره أمثال النسفي[٢] وابن الجزي والسمين الحلبي، فيقدّم ابن الجزي خلاصة ما سبق، ويعرض للآراء المختلفة مرتبّاً إياها وفقاً لعدد الرواة، وقد اختار الرأي الأول، فيقول: "قوله تعالى: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال. أحدها: في نصب"[٣]، ويبيّن سبب اختياره هذا في أنّ الإنسان يكابد الشكر على السَّرَّاء والصبر على الضَّرَّاء، لأنه لا يخلو من أحدهما، ويكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة. ثم يذكر الثاني والثالث دون تفضيل لهما، كما سيأتي بيانه[٤].

يعرض ابن كثير للمعاني المحتملة أيضاً، لكنّه يختار الرأي نفسه الذي اختاره الطبري، والبغوي، ومن سبق ذكرهم[٥]، ويسير على النهج نفسه السعدي، في إيضاح مكابدة الإنسان من شدائد الدنيا والآخرة، في قوله: "يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم. وإن لم

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الجامع لأحكام القرآن، ٦٢/٢٠ وما بعدها.

(٢) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣٢/٤؛ والسمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف، الدر المصون في علم الكتاب المكنون، ص٥٨١٤.

(٣) ابن الجزي، محمد بن أحمد بن محمد بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ص٢٦١٠.

(٤) انظر المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٤٠٤

يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد"[١]. ويماثلهم في الأمر أبو السعود، فإنّه قال: "أي: تعبٌ ومشقةٌ، فإنَّه لا يزال يقاسي فنون الشدائد، من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها، وما وراءه، يقال: كبد الرجل كذا، إذا وجعتْ كبدُه. وأصلُه كبدَهُ إذا أصاب كبدَهُ، ثم اتسع فيه حتَّى استعمل في كل نصب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة، كما قيل: كبته بمعنى أهلكه، وهو تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ممّا كان يكابده من كفار قريش"[٢].

يعيد الشوكاني ما ذكره المفسرون قبله، في أنّ أصل الكبد الشدّة، ومنه تكبّد اللبن: إذا غلظ واشتدّ، ويقال كبد الرجل: إذا وجعت كبده، ثم استعمل في كل شدّة ومشقة[٣]، ويربط الشنقيطي المشقة والعناء، بما كابده الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، في الدعوة وتحمّل الأذى في سبيلها، فيقول: "وفيه أَروع المثل للصَّبر على المشاقّ في الدَّعوة، فقد آذوه كلَّ الإِيذاء، حتى وضعوا سلا الْجَزُورِ عليه وهو يصلّي عند الكعبة، وهو يصبر عليهم، وآذوه فِي عودته من الطَّائف، وجاءه ملك الجبال نصرة له، فأَبى وصبر ودعا لهم، ومنعوه الدُّخول البلدة مسقط رأْسه فصبر،

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، يسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٩٢٤.

(٢) أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،١٧/٧.

(٣) انظر الشوكاني، محمد بن علي بن محمد،فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، ٥٤٢\٥.

ولم يدع عليهم، ورضِي الدخول في جوار رجل مشرك، وهذا هو االمناسب لقوله بعده، لقد خلقنا الإنسان في كبد[١]".

ومن التفسيرات الحديثة ما أورده السامرائي بقوله: "الكبد له أكثر من دلالتين، فهو يعني: الشدة والمشقة: يكابد مشاقّ الدنيا والآخرة، ولم يقل خلقنا الإنسان مكابداً. (في كبد) تعني أنه مغمور في الشدائد والمشقّات، منذ قطع سرّته، والمشاقّ تحيط به، وهو منغمر فيها إلى أن يقتحم العقبة، فإمّا أن ينجو أو أن يكون في النار. للقوة والصلابة والشدة: والكبدة هي القطعة من الأرض الصلبة، يقال (أرض كبداء)، لأن الذي خُلق للمشاقّ ينبغي أن يكون متحمّلاً للشدائد، فهي من لوازم المعنى الأول"[٢]. فابن آدم يكابد من البلايا ما لا يكابده غيره، يعني أن الكبد يتناول شدائد الدنيا من قطع سرته، والتفافه بخرقة محبوس الأعضاء، ومكابدة الختان وأواجاعه، ومكابدة المعلم وصولته، والأستاذ وهيبته، ثم مكابدة شغل التزوّج، وشغل الأولاد والخدم"[٣]. وجاء في الموسوعة القرآنيّة: "والكبد المشقة، قال: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ، تنبيهاً أنّ الإنسان خلقه اللّه تعالى على حالة لا ينفكّ من المشاقّ، ما لم يقتحم العقبة، ويستقرّ به القرار"[٤].

أمّا في تفسيرهم للفظة (الإنسان) فورد بها عدة أقوال، منها أنّها مخصّصة برجل بعينه اختُلف في اسمه، وتعدّدت الروايات في شأن تسميته، واتفقت في وصفه أنّه

(١) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٥٣١/٥..

(٢) السامرائي، فاضل صالح، لمسات بيانية، ص٢٢٠.

(٣) حقّي، إسماعيل حقّي البروسوي، تفسير روح البيان، ٤٣٥/١٠.

(٤) الإبيارى، إبراهيم، الموسوعة القرآنية، ص٣٥٧٧

رجل شديد القوة، ظنّ أن لن يقدر عليه أحد، ومنها أنها اسم جنس، ورأي أخير أن المقصود آدم عليه السلام[١].

على هذا يكون تفسير (كبد) وفقاً للمقصود من لفظة (الإنسان)، فالخلق في مشقة وتعب قد يكون المقصود به التذكير بحقيقة الإنسان حين يتجبّر، وبيان طبيعة الحياة الإنسانية.

ثانياً: الاستقامة واعتدال القامة:

يورد الطبري معنى الانتصاب واعتدال القامة بقوله: "خُلِق منتصباً على رجلين، لم تخلق دابة على خلقه"[٢]، واختار المعنى نفسه صاحب تفسير الوجيز، فقال: " قيل منتصباً معتدلاً[٣]، وكذلك الحال لدى البغوي[٤]، أمّا ابن عطيّة، فيذكر معنى انتصاب القامة والوقوف، ثمّ يضعّفه ويختار المعنى الأول (المشقة)، دون أن يفسّر سبب هذا الاختيار، ثم يقرّر أن هذا القول ضعيف[٥]. يعرض ابن الجوزي لمعنى الانتصاب بعد الخروج من الرحم فيقول: "خلق منتصباً يمشي على رجلين، وسائر الحيوان غير منتصب، .... فعلى هذا يكون معنى الكبد: الاستواء والاستقامة"[٦]،

---

(١) انظر ابن عطيّة، المحرر الوجيز، ٣٠٤/١٦؛ والثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٤١٥/٤؛ وابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير،زاد المسير في علم التفسير، ١٦٠/٦.

(٢) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٣٤/٢٤ وما بعدها.

(٣) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص١١٢٠.

(٤) البغوي، معالم التنزيل، ٤٣٠/٨.

(٥) انظر ابن عطيّة، المحرر الوجيز، ٣٥/٧.

(٦) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ١٦٠/٦.

ويرى القرطبي المعنى ذاته، من الانتصاب قبل الخروج من الرحم، فيقول: "منتصباً في بطن أمه. والكبد: الاستواء والاستقامة. فهذا امتنان عليه في الخلقة. ولم يخلق الله جلّ ثناؤه دابة في بطن أمّها إلا منكبة على وجهها، إلا ابن آدم، فإنّه منتصب انتصاباً"(١)، في حين أنّ ابن الجزي يذكر معنى الانتصاب، ثم يضعّفه بقوله: "معنى في كبد واقفاً منتصب القامة، وهذا ضعيف"(٢).

يعرض ابن كثير معنى الاستقامة في لفظة "كبد"، فيقول: "والكبد: الاستواء والاستقامة. ومعنى هذا القول: لقد خلقنا الإنسان سوياً مستقيماً"(٣)، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ (٤)، وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٥)، ويختار الطبراني معنى الاستقامة رواية عن ابن عباس، فيقول: "في اعتدال وفي انتصاب"(٦)، ويربط السعدي الاستقامة في الخلقة، من أجل ما ينتظر الإنسان من أعمال شديدة تحتاج هذا، فيقول: "ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقة، يقدر على التصرّف والأعمال الشديدة"(٧).

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦٢/٢٠.

(٢) ابن الجزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ص٢٦١٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤٠٣/٨.

(٤) الانفطار، ٦، ٧.

(٥) التين، ٤.

(٦) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير، المعجم الكبير، ١٨٧/١٠

(٧) السعدي، يسير الكريم، ص٩٢٤.

الانتصاب كما رآه المفسرون ابتدأ في الخلق، منذ تشكّل الجسد في رحم الأم، ويليه انتصاب آخر في هيئته الخارجيّة، في المشي على قدمين اثنتين فقط. وقد يجمع معنى الانتصاب والمشقة، فيربط بينهما إظهار دلالة واحدة: "ويقال: خَلَقه في بطن أمه (منتصباً رأسُه)، فإذا أذِن الله أن يخرج من بطن أمّه تنكَّس رأسه عند خروجه، ثم في القماط وشدّ الربّاط. ثم إلى الصّراط هو في الهياط والمياط"[١].

ثالثا: في السماء

يورد كل من الطبري وابن كثير وابن الجوزي معنى الكبد: في السماء، ويكون هذا المعنى في الخيار الثالث للمفردة بعد: المشقة، والاستقامة، فقال الطبري: "حدّثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن مُغيرة، عن مجاهد (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)، قال: في صَعَد. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنه خُلق في السماء. ذكر من قال ذلك: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)، قال: في السماء، يسمّى ذلك الكَبَد"[٢]. أمّا ابن الجوزي فيقول: "والثالث: في وسط السماء، قال ابن زيد: «لقد خلقنا الإنسان» يعني: آدم «في كبد» أي: في وسط السماء"[٣]. ويعرض ابن كثير للمعنى ذاته أيضاً، فيقول: "وقال ابن زيد: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} قال: آدم خلق في السماء، فَسُمي ذلك الكَبَد"[٤]، ويوافقهم المفسرون الآخرون حين يعرضون المعنى في المرتبة الثالثة، غير أنّ أنّ بعض المفسّرين، يقرّر ضعف هذا المعنى كضعف المعنى الثاني: استقامة، كرأي ابن

(١) القشيري،لطائف الاشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، ٤٢٢/٣.

(٢) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٣٦/٢٤.

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير،١٦٠/٦.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٤٠٥

عطية إذ يقول: "و{في كبد} معناه: في السماء سماها كبداً، وهذان قولان قد ضعفا والقول الأول هو الصحيح"[١]. وبعضهم يربط المعنى بدلالة لفظة "الإنسان"، فإن دلّت على آدم عليه السلام كانت "كبد": في السماء- مرّ رأي المفسرين بهذه اللفظة- كقول ابن الجزي: "وقيل: الإنسان آدم عليه السلام، ومعنى في كبد على هذا في السماء وهذا ضعيف والأول هو الصحيح"[٢].

يعود المعنى إذن، إلى استخدام تعبير "كبد السماء"، "وكبد السماء وسطها تشبيها بكبد الإنسان لكونها في وسط البدن. وقيل تكبّدت الشمس صارت في كبد السماء، والكبد المشقة، قال: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ تنبيهاً أنّ الإنسان خلقه اللّه تعالى على حالة لا ينفكّ من المشاقّ، ما لم يقتحم العقبة، ويستقرّ به القرار.[٣]

رابعا: القوة

دلّت المفردة على الاغترار بالقوة الجسديّة التي خلق الله عليها بني آدم، هذا بالاعتماد على تفسير مفردة "الإنسان"، كما ذكر الطبري: "إنّ هذا نزل في رجل من بني جمح، كان يقال له أبو الأشدين، وكان يأخذ الأديم العكاظي، فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه، وكان من أعداء النبي صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، وفيه نزل **سمح**أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ **٥سجى** [٤] يعني: لقوته"[٥]. وعرض للمعنى نفسه أيضا البغوي: "في

(١) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ٣٥/٧.

(٢) ابن الجزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ص٢٦١٠.

(٣) الإبيارى، الموسوعة القرآنيّة، ص٣٥٧٧

(٤) البلد، ٥.

(٥) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٣٤/٢٤.

كبد" أي في قوة[١]". وينقل القرطبي الحادثة ذاتها فيقول: "وقيل: في كبد أي جريء القلب، غليظ الكبد، مع ضعف خلقته، ومهانة مادته"[٢]، أمّا عن رأي الشوكاني فيوضّحه بقوله: "معنى: {فِي كَبَدٍ} أنّه جريء القلب غليظ الكبد .{أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ" عَلَيْهِ أَحَدٌ} أي: يظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد، أو يظنّ أبو الأشدّين أن لن يقدر"[٣]. فمعنى القوة هنا حالة خاصّة من المعنى العام، القوة بشقّها السلبي لا بمدلولها الإيجابي، لا تكون إلّا بالتكبّر والتجبّر، ولا تقود إلّا للظلمة والجهل.

دلّت اللفظة إذن، في معناها الخاص على "ابتلاء الإنسان بالتعب واغتراره بقوته وماله"[٤]، فأصيب الإنسان بالغرور بقوته التي وهبه إيّاها الله، ونسي أنّ المعطي قادر على الأخذ، وأنّ قوة البشرية جمعاء قوة قاصرة وغير دائمة، فمهما قوي سيمرّ بمراحل ضعف عدّة، فجاء المعنى الخاصّ هنا ملائماً لوصف خاص في تفسير من فسّر دلالة الإنسان على شخص بعينه لا دلالة عامّة، لتكون الآية رداً على تجبّره، وتبياناً لمصير قوته الزائفة.

---

(١) البغوي، معالم التنزيل، ٨/٤٣٠.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، ٢١/٦٢.

(٣) الشوكاني، فتح القدير، ٧/ ٤٩٦.

(٤) الزحيلي، وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٣٠/٢٤٣.

المبحث الثالث: دلالة "لقد خلقنا الإنسان في كبد"

أولا: آيات الخلق

سأعرض أولا الآيات التي وردت بها لفظة "خلقنا" لبيان دلالاتها، ثم أنتقل منها إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾، كي أبيّن العلاقة بين كلّ الآيات التي وردت بها اللفظة، ومن ثمّ أصل للمعنى الأقرب للآية، وفقاً للمعاني التي وردت في الآيات، وما اشارت إليه من دلالات.

التركيب الوارد فيه الفعل (خلقنا) في القرآن الكريم:

التركيب	الآية	رقمها
١: لقد+ خلقنا+ تتمّة		
١: ١ لقد+ خلقنا+ الإنسان+ تتمّة	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾	سورة الحجر الآية ٢٦
	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾	سورة المؤمنون الآية ١٢
	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾	سورة ق الآية ١٦
	﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾	سورة البلد الآية ٤
	﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾	سورة التين الآية ٤

التركيب	الآية	رقمها
١ : ٢ لقد+ خلقنا+ السموات والأرض+ تتمّة	﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾	سورة ق الآية ٣٨
٢ : خلقنا + ما يعادل الإنسان+ تتمّة	﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾	سورة المؤمنون الآية ١٤
	﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾	سورة الأعراف الآية ١٨١
	﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾	سورة الذاريات الآية ٤٩
٣ : فعل+ شبه جملة+ خلقنا+ الإنسان و غيره+ تتمّة	﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾	سورة الإسراء الآية ٧٠
	﴿ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾	سورة الفرقان الآية ٤٩

التركيب	الآية	رقمها
٤ : خلقنا+ شبه جملة+ فعل+ تتمّة	﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾	سورة يس الآية ٤٢
٥ : التوكيد بـ(إنّ) + خلقنا+ تتمّة ٥ : ١ التوكيد بـ(إنّ) + خلقنا + الإنسان+ تتمّة	﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾ ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾	سورة الصفافات الآية ١١ سورة الإنسان الآية ٢
٥ : ٢التوكيد بـ(أنّ) + خلقنا + الأنعام+ تتمّة	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾	سورة يس الآية ٧١
٦ : النفي بـ(ما) + خلقنا+ السموات والأرض+ تتمّة	﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾	سورة الحجر الآية ٨٥
	﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾	سورة الأحقاف الآية ٣
	﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾	سورة الدخان الآية ٣٨
	﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ	سورة الدخان الآية ٣٩

التركيب	الآية	رقمها
	﴿ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	
	﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾	سورة الدخان الآية ٣٨
	﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾	سورة ص الآية ٢٧
٧: الاستفهام بالهمزة + أم + خلقنا + الإنسان وغيره + تتمّة	﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾	سورة الصافات الآية ١١
	﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾	سورة الصافات الآية ١٤٩
	﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾	سورة الصافات الآية ١٥٠

من اللافت في الفعل (خلقنا) في الآيات السابقة أنّه دلّ على ثلاثة أمور هي: مادة الخلق التي خلق منها الإنسان (من طين، من سلالة من طين)، ثم علاقة النفس بالطين وقيادتها له (ونعلم ما توسوس به نفسه)، وثالثاً الهيئة الشكليّة العامّة للإنسان التي تجمع كلّا من: الطين، والنفس، فيتشكّل بناء الإنسان من الطين والنفس، ليكوّن شخصيته المستقلّة (في كبد، في أحسن تقويم)، وهذا من دلائل عظمة الخالق، ولا يكون إلّا بالتقويم الحسن الذي ابتدعه الله لبني آدم، فمن غير المناسب لهذه الثلاثيّة في الخلقة أن نلتزم فقط بمعنى المشقّة والتعب لـ(كبد)، ونخرج عن الوصف المبتغى من

سلسلة الخلق الموضّحة في الآيات. جلّ الاهتمام بالحدث، حدث الخلق في أحسن حال، علاوة على دلالة الزمن، بإشارة المضي في صيغة الفعل الماضي(خلقنا) إلى الثبات في القدرة المطلقة على الخلق، غير محكومة بزمن متغيّر ولا متنقّل، حيث تمّ أمر الخلق وانتهى، وما يلي تلك المرحلة هو الحياة الدنيا، لتكون اختبار المخلوق في صون خلقه، والسعي لشكره.

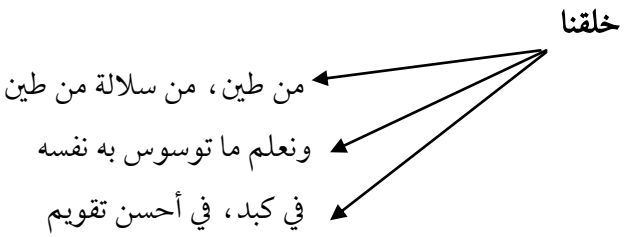

كذلك تتمّة التركيب الفعليّ، إذ اشتمل على أوصاف ذات دلالة ثبوتيّة، فجاء الوصف في سياقات عدّة، كلها إيجابيّة تبيّن حسن الخلقة للإنسان، وقدرة الخالق في خلقه.

جاء في تركيب سلسلة الخلق: (خلقنا الإنسان "من".../ خلقنا الإنسان "في"...) لبيان النوع في الأولى[1]، فالله يصوّر خلقه في أحسن تقويم، ومن أسمائه جلّ وعلا المصوّر، "فالمصور في أسماء الله الحسنى هو مبدع صور المخلوقات، ومزيّنها بحكمته، ومعطى كل مخلوق صورته على ما اقتضت حكمته الأزليّة، وكذلك صوّر الله الناس

(١) انظر العثيمين، محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، أي: جعلناه بالنوع، وعلى هذا فأُوّلت الآية في آدم وحواء،٢/٣٠٥.

في الأرحام أطوارا، وشكلهم أشكالا"[١]. وإن كان المعنى الشدة والمشقّة، فهو أيضا دالٌّ على خلقة مختلفة للإنسان عن الحيوان، فشدّته في معيشته المختلفة، بسبب هيئته المختلفة، فأفاد حرف الجر "في كبد" بيان هيئة خاصّة للإنسان.

أمّا حين اتجه الوصف للنفس وما توسوس به فجاء التركيب باستخدام حرف الواو، بدلالته الحاليّة الآنيّة في: (ونعلم ما توسوس به نفسه)، (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)، فالله الذي خلق الإنسان من طين وسوّاه في أحسن خلقة يعلم وساوس النفس فيه، وما قد ينجم عن هذه الوساوس من معاصٍ، ومع ذلك أتمّ خلقه، وهو في حال أقرب إليه من حبل الوريد، فجاءت الحالان[٢] في الحال الأولى: (ونعلم ما توسوس به نفسه) بحذف المبتدأ الضمير المنفصل(نحن) دلالة على معرفة الخالق باستمرارية الوسوسة التي لا تنتهي، وغفرانه لها لمن يطلب المغفرة، كأنّها لم تكن على الرغم من تجدّدها الدائم، بفعل طبيعة الإنسان البشريّة، وجاءت الحال الثانية ثبوتيّة الدلالة بالمبتدأ الضمير المنفصل الدالّ على الذات الالوهيّة: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)، وذكر المبتدأ هنا دون حذفه فيه من السكينة ما فيه، فدلّ التركيب على قرب الخالق من المخلوقات التي توسوس لها نفوسها الضعيفة، وليس أيّ قرب، بل هو أقرب من حبل الوريد.

للتحقيق في (قد)[٣] المتصل بلام التأكيد دور لغوي في إيصال المعنى المبتغى، من إثبات قدرة الخالق على الخلق، في هيئة لا مثيل لها من طين ونفس في خلق الإنسان، وإشارات إلى خلق السموات والأرض وما بينهما، وجاءت الظرفيّة الزمانيّة: (في ستة

(١) الرضواني، أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة، محمود عبد الرازق، ٢٠/١٨.

(٢) انظر صافي، محمود عبد الرحيم، الجدول في إعراب القرآن،١٢٦ / ٣٠٧.

(٣) انظر ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص٢٣١.

أيام) بدلالة خاصّة، وذلك لذكر العدد ستة مقارنة مع عظمة المخلوق، فتجلّى الخطاب في هذا النسق الوصفيّ وسيلة لتسجيل المشاهدات، عبر أدلة بصرية يستدعيها الخيال، فيستعظم قدرة الخالق، إثر العدد الذي يصعّد المعجزة الخلقيّة.

وصف الهيئة الخارجية أهم المشاهدات التي وقف عندها التركيب (خلقنا)، فاعتمد آلية الصورة التوضيحيّة لذلك، فجاءت الصور التوضيحيّة معمّمة غير مخصّصة، لتشمل كلّ ما خلق الله من بشر، لكنّه حسن الشكل والتقويم، على الرغم من وسوسة النفس وتوظيف هذه الحال لها، في بيان قرب رب العالمين من العباد، لتقارن وفق كلّ هذا التصور مع ما خلق الله، من أنعام وملائكة وسموات وأرضين.

استخدمت التراكيب السابقة أسلوب التقابل في التعبير الوصفيّ بين الإثبات والنفي، فجاء الحرفان(من) و(في)، لدلالة إثبات القدرة الإلهيّة في الخلق، ومعرفة الأجناس المخلوقة، وبيان أصل خلقها: (النطفة، العلقة، المضغة، أمّة، زوجين، أنعاما) كما سبق بيانه، مقابل النفي في إثبات صفة الخلق لغاية، وربطها بأهداف مع خلقها.

هنا تبدو أهميّة النفس في تشكيل الإنسان، وكونه مسؤولا عن أفعاله ووجوده: (وما خلقنا..... + لاعبين/ باطلا/ إلا بالحق)، فاعتمد التركيب في رسم صور الخلق للسموات والأرض وما بينهما من مخلوقات على النفي[1] في بيان قدرة الخالق، وجاء النفي بدلالته الصريحة، في المجموعة السادسة في الجدول السابق. فبدا في الآيات توظيف حرف الجرّ (بـ) لبيان (بالحقّ)، والعطف في (وأجل مسمّى) من أجل التدبّر والتأمّل لمسألة الخلق، ويبيّن الفراء الهدف من الحصر هنا بقوله: "ما خلقناهما (إِلَّا بالحقّ)

(١) المصدر نفسه، ص٤١٥.

للثواب والعقاب والعمل"[١]، ويشير الرازي إلى دلالة العطف في :"وأجل مُسَمًّى"، فيرى أنّه يفيد التذكير بالأصل الآخر الذي أنكروه[٢]، فيعلم الإنسان أنّ الأمر ليس اعتباطيا بلا هدف يُرجى، بل كل الأمور مؤجّلة إلى يوم البعث، فيؤكّد القرآن الكريم على ما في السموات والأرض من أدلة الخلق والإفناء والبعث.

أمّا التوكيد بعد الفعل خلقنا، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾[٣]، فجاء لبيان القدرة الإلهية في الخلق والإبداع، ثمّ حتميّة الفناء، وإعادة الخلق من جديد، في هيئة غير التي نراها، وفي أجل لا نعرفه، كما نصّت عليه الآية السابقة: "أجل مسمّى"، لكنه غير معلوم للبشرية. وجاء الاستدراك في (لكن)، بعد الفعل "خلقنا"، لجعل الجملتين المتتاليتين، قبل "لكن" وبعدها تحملان فكرة اختلاف، وترتبطان فيما بينهما[٤]، وهما مرتبطتان بأداة ربط عكسيّة "لكن"، فالمفروض أن يعلم كل عاقل عظمة الخالق، وما جاء بعد (لكن) أظهر جهل الكافرين بهذه الحقيقة الحتميّة، لذلك احتاج المعنى أن يبيّن نوع العلاقة بين الجملة قبل (لكن) التي تقرّ حقيقة الخلق، والأخرى بعدها، في وصفها لإنكار الكافرين وعدم علمهم.

يفيد الاستفهام الاستنكار في المجموعة الأخيرة، من الآيات في الجدول السابق ذكره ، فتقابل التراكيب الاستفهاميّة الإنكارية بين حالتين من الخلق، حال توجب التوحيد لرب العباد، وحال تبيّن صورة المشكّكين في الخلق، فوردت الآيات الدالة على الخلق لتقرير انفراده تعالى بالأمر بصيغة الاستفهام الإنكاري، لأنّ المشركين لم

(١) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن،٢/٣١٠.

(٢) انظر الرازي، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى، مفاتيح الغيب، ٢٥/٨٢

(٣) الحجر، ٨٥.

(٤) انظر الزناد، الأزهر، نسيج النص، ص: ٣٥، ٢٨.

ينكروا ذلك بل يعترفون به، فتشير الآيات إلى أن المشركين لم يجعلوا مع الله شركاء في خلقه للسماوات والأرض، وعلى الرغم من شركهم واتخاذهم الأصنام سبيلا للعبادة، فهم "لم يعتقدوا أنها الرازق المحيي المميت، بل جعلوها شريكاً مع الله تعالى في عبادتهم واتخذوها شفعاء"(١).

عدّ ابن الأثير المطابقة من باب التناسب بين المعاني، وقال: "سُمّي هذا النوع (المقابلة)، لأنّه لا يخلو الحال فيه من وجهين، إمّا أن يقابل الشيء بضده، أو يقابل بما ليس ضده"(٢)، فالمقابلة هنا ليست من قبيل الضد، بل لبيان حالين مختلفين، يبدو الخالق في حال ويترفّع عن المقابلة في الضد، ففي قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (٣) بيان لإنكار المشركين وإبطال دعاويهم، فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بإبطال ما نسبه المشركون إلى الله من الولد. فضمير الغيبة من قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ عائد على غير مذكور، يعلم من المقام، مثل نظيره السابق في قوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ (٤). والمراد: التهكم عليهم بصورة الاستفتاء، إذ يقولون: ولد الله، على أنهم قسموا قسمة ضيزى، حيث جعلوا لله البنات، وهم يرغبون في الأبناء الذكور ويكرهون الإناث، فجعلوا لله ما يكرهون"(٥). أمّا "أم" في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ

(١) انظر سنكلجي، شريعت، توحيد العبادة، ص٢٤.

(٢) ابن الأثير، المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين نصر الله بن محمد، ٣/ ١٧٢.

(٣) الصافات، ١٤٩.

(٤) الصافات، ١١.

(٥) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي، ٢٣/٩٠.

شَٰهِدُونَ ﴾[١] فيرى ابن عاشور أنّها "منقطعة بمعنى (بل)، وهي لا يفارقها معنى الاستفهام، فالكلام بعدها مقدّر بهمزة الاستفهام، أي بل أخلقنا الملائكة إناثا. وضمير ﴿ خَلَقْنَآ ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم، وهو إذا استفتاهم يقول لهم: أم خلق الملائكة، كما تقدّم، والاستفهام إنكاري وتعجيبي، من جرأتهم وقولهم بلا علم"[٢]، ويربط الرازي بين الخلق والعبادة، ليحيا الإنسان بسعادة، وألّا يكون مصيره العذاب، إذ يقول: "اعلم أنّه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار، فكأنّه قيل الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم، فأجاب عنه بأنّي إنّما خلقت الخلق، ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة، فإذا تركوها وأعرضوا عنها وجب في الحكمة إهلاكهم، وتطهير وجه الأرض منهم"[٣].

إذن، قلّب سياق الآيات دلائل الألوهية في القدرة على الخلق؛ لتدور حول موضوع واحد هو الهدف من الخلق في العبادة، وفي الوقت نفسه يوحي بجماليّة خلق الإنسان في الهيكل العام وفي النفس أيضاً، إذ مكّن من جعل عالم الخلق الإلهي صورة تعكس اليقين، في رأفة الخالق بمخلوقه، فمن خلقه في أحسن تقويم، من طين ويسّر له كلّ المخلوقات، لن يدعه يكابد الحياة وحده، على أن يعبد الله حقّ عبادته، لذلك لجأت الآيات لتكرار هيكليّ بنائيّ، في تعداد المخلوقات حولنا، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ

(١) الصافات، ١٥٠.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها وما بعدها.

(٣) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي، مفاتيح الغيب، ١٦٣/١٩.

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[١]، بعد أن ذكرت الآيات خلق أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، مبيّنة الهدف من الخلق، وهو الهداية إلى الحق، مقارنة إيّاهم مع الفئة الضالة: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢]، فجرى تقليبها حول التخصيص والإخبار، إذ اعتمد التخصيص فخصّص الفئة المقصودة، وعلّقها بما تلاها من الفئة الثانية في تركيب الجملة الفعلية المستقبليّة ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾، وبتلازم حالين ضمن علاقة تخصيص.

الكثرة الملازمة في هذا النسق التركيبيّ في رسم حالين مختلفين بدت أيضا في سورة الإنسان، بعد وصف خلق الإنسان من نطفة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[٣]، فيكون من أهل الهداية أو من أهل الضلال، وعقدت الآيات مقارنة بين خلق الإنسان من طين، والجان من نار قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[٤]، وفي هذا مقابلة بادية بين الإنس والجن من جهة، والطين والنار من جهة أخرى، وعلى موقف من ثبات إيجابية الوصف، وحضوره الفاعل، يأتي الوصف المشتق (خلّاق) في جملة مؤكّدة بـ(إنّ): ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٥]، بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ

(١) الأعراف، ١٨٥.
(٢) الأعراف، ١٨٢.
(٣) الإنسان، ٣.
(٤) الحجر، ٢٧.
(٥) الحجر، ٨٦.

﴿ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾[١]، كأنّ التركيب يخشى أن يغفل متلقيه عن الصورة الألوهيّة التي بيّنها الفعل (خلقنا)، فيبثّ الخطاب في الصفة "خلّاق" ما يجعل متلقيه متيقّظاً دوماً لها، وما يمكّنه من الإقرار بعظمة الخالق، ففيها توكيد، وحصر، وهذا دليل انفراده بالخلق[٢].

تقابل الآيات أيضا بين موقف الجاحدين وما يلائم الموقف من تذكّر وتدبّر في سورة الصافات، بعد إثبات خلق الإنسان من طين لازب: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤﴾[٣]، وفي مقابلة أخرى بين الحق والباطل تبدو صورة خلق السموات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾[٤]، فبدت قوة التأثيرفي المقابلة بين: (عجبت- يسخرون/ ذكّروا- لا يذكرون/ رأوا- يستسخرون) في التخصيص الموجّه لمحمد صلوات الله عليه أكثر من الإخبار، مقابلة بالجاحدين من أهل قريش، ولما تشغله من حيز وظيفيّ في تركيب الشرط التابع لوصف المقابلة، وفي تركيب العطف، فتمّ توزيع المفردة (خلقنا)، وما تلاها من معانٍ بين حيزين وظيفيين.

جاء الخطاب متماشياً مع المقابلة في الوصف أيضاً، بعد وصف الآيات لنفي خلق السموات والأرض باطلا في سورة "ص"، فبيّنت الفئتين المتقابلتين في فهم مسألة

---

(١) الحجر، ٨٥.

(٢) العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، ٢٥٣/٢.

(٣) الصافات، ١٢- ١٤.

(٤) الأنبياء، ١٦- ١٧.

الخلق من عدم فهمها: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (١).

ظهرت الدلائل الخلقية أيضا، في سياقات الفعل (خلقنا)، فالخطاب ليس بمعزل عن سياقه، ومن هذه الدلائل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)، وكذلك الحال في سورة الفرقان، عند بيان دلائل الخلق في الأنعام والبشر والظل والليل والرياح، ووصفت الآيات سلسلة الخلق في سورة المؤمنون من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم العظام واللحم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (٣)، وعلى الرغم من أنّ هذا المدرك شيء مادي ينتمي إلى عالم الواقع، فهو ذو طبيعة خاصّة، وذو علاقة متداخلة البنية، له جانب ماديّ تتعرف إليه الحواس، وجانب معنويّ تبثّه الآيات ليكون عظة وعبرة للبشر؛ لذلك فالمخلوق من طين مرّ في هذه المراحل اللازمة، قبل أن يكون في هيئة حسن التقويم، وما هذا بصنع بشر، بل هو صنع مليك مقتدر.

ثانيا: دلالة " كبد"

---

(١) ص، ٢٨.

(٢) الذاريات، ٤٧- ٤٩.

(٣) المؤمنون، ١٢- ١٤.

وفقاً لما ورد في معاجم العربية سابقا تبيّن أنّ معنى الخلق هو الابتداع الدالّ على عظمة الخالق، وتفرّده في إيجاد المخلوقات وتشكيل هيئتها، فوُظّف الفعل (خلقنا) استناداً إلى معنى الخلق في الابتداع، لبيان قدرة الخالق في ما خلق، فجاء دالّا على تفرّده عن مخلوقاته، إذ أوجد المخلوقات، بعد أن لم تكن موجودة، وخلقها على أحسن حال.

أمّا بالنسبة للفظة (كبد) فهي ذات معانٍ مختلفة، كما جاء في المعاجم، ممّا جعل المفسرون يذكرون معانيها كلّها احياناً نقلاً عن المعاجم، وقد يغلّبون أو يضعّفون رأيا على آخر اعتمادا على الروايات المنقولة، وحين يتحدثون عن معنى الاستقامة وحسن الهيئة نجد من تبنّى هذا الرأي مبيّنا قوّته، في وصف الهيئة البشريّة، وما يمثّله من حالة تفرّد خاصة للإنسان، وهناك من يذكره فقط، دون أن يختاره في تفسيره، بسبب وجود المعنى في روايات التفسير، وهم بذلك ساروا على نهج من سبقهم، في تضعيف معنى الاستقامة، وتقوية معنى المشقّة. وربما يكون السبب في هذا ربط السعادة بالآخرة والمشقّة بالدنيا، لينشغل الإنسان بما خلق له من عبادة وتعمير الأرض، فلا تكون المشقّة إلا دافعاً له، ليعمل من أجل الآخرة، لكن ما نريد إثباته هنا أنّ المشقّة وإن كانت المعنى الأكثر قبولاً من المفسرين، غير أنّها ليست بالضرورة أن تكون مشّقة مكابدة لا مناص منها، بل هي مكابدة خلقيّة كل إنسان يحياها، دون أن يشعر بها ابتداء من مرحلة الأجنّة، ومروراً بكل ما خصّ به الله الإنسان والحيوان، من رضاعة ونبات الأسنان وفطام، ثم انتهاء بمرحلة التفكّر التي تميّز الإنسان عمّن سواه، فتجعله يشعر ويتألم ويتوجّع أكثر من الحيوان، وفي كل هذا مشقّة لا تعني أبدا أن حياة الإنسان هموم وأوجاع، بل حياة جدّ وعمل وفرح أيضا، ونجاح يكلّل كل خطوة يخطاها.

ومع ذلك اتضح ممّا سبق اختلاف في نظرة المفسرين، حول ماهيّة التعب والمشقيّة، فمن اختار معنى المشقة والتعب جاء اختياره وفقا للأمور الآتية:

- مشقة تكوّن الجسد من نطفة، ثمّ علقة، ثم مضغة إلى أن يخرج من الرحم.
- مشقّة ما بعد الخروج من الرحم، في مكابدة الرضاع والفطام ونبات الأسنان والحبو والمشي... الخ.
- مشقة ما بعد مرحلة الطفولة، في مكابدة أمور الحياة وضنك العيش.

فلا ينحصر المعنى في نواع واحد من أنواع المشقّة لديهم، فمشقة الخلق لا يشعر بها الإنسان، ولا يعي كيف يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة، حتى يصبح كائنا مولوداً، فهي مشقّة تثبت آلهيّة الخلق المتفرّدة، ليستشعرها الإنسان، لا ليعاني بسببها، أمّا مشقة ما بعد الخروج من الرحم، فهي في مرحلة ما قبل الإدراك، وفي سن لا يعيش فيه الإنسان المشقّة والتعب ولا تشكّل له أيّ شعور، فتبقى المشقّة الأخيرة التي يختارها الإنسان بوعيه وإدراكه، فإمّا أن يكون من الأشقياء ببعده عن عقيدته، فلا شكر على نعمة ولا صبر على ضرّاء، وإمّا أن يكون في سلام المؤمن الذي يرضى بقضاء الله وقدره، ويحتسب الأجر مهما واجه من ضنك الحياة.

فإذا نظرنا في آيات سلسلة الخلق السابق ذكرها نجد أنّها تعرض سلسلة حياة الإنسان، لينظر فيها ويتّعظ، فيعرف قدرة الخالق في ما خلق، "فتلفت نظر الإنسان إلى أنه كان نطفة في الرحم فصارت النطفة علقة ثم مضغة ثم لحما وعصبا وعظاما وأعضاء وحواس، ثم يخرج بعد تلك الأطوار بشرا سوياً، صُوّر على أحسن صورة وخُلق على أحسن خلقة، ثم تتعاقب عليه الأحوال من كبر وصغر، وضعف وقوة،

وجهل وعلم، ومرض وصحة، ثم الموت والفناء لكل حي، فلا بدّ لهذه التغيرات من مغير عالم قادر حكيم"[١].

ومن خلال آيات سلسلة الخلق أيضا تتضح المقارنة بين: (في كبد)، و(في أحسن تقويم)، فجاءت "في" لبيان الهيئة الخارجيّة، إذ وردت الآيتان في باب المتشابهات عند الفيروزأبادي، وضمن أسرار التكرار عند الكرماني: "قوله﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٢]، وقال فى البلد: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[٣] لا مناقضة بينهما؛ لأَنَّ معناه عند كثير من المفسّرين: منتصِب القامة معتدِلها، فيكون فى معنى أَحسن تقويم، ولمراعاة الفواصل فى السّورتين جاءَ على ما جاء"[٤]، فدلّ ما سبق إذن، على أن الإنسان خُلق منتصبا غير منحنٍ كسائر الحيوان، فأشار الخلق على اختلاف هيئة الإنسان عن سائر المخلوقات، من استقامة وانتصاب، وما يستلزم هذا الاختلاف في الهيئة اختلافا في الفكر والتصرّف، ليكون خليفة الله في أرضه.

---

(١) الخميس، محمد بن عبد الرحمن، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، ص٢٣٤.

(٢) التين، ٤

(٣) البلد، ٤

(٤) الفيروزأبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، ص٣٥٦؛ وانظر الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، أسرار التكرار في القرآن، ص٢٢١.

الخاتمة:

بيّنت آيات خلق الإنسان السابقة أنّ الله خلق الإنسان في أحسن هيئة، فهو منتصب غير منحنٍ كسائر الحيوان، فدلّ الخلق على اختلاف هيئة الإنسان عن سائر المخلوقات، من استقامة وانتصاب، وعند مقارنة الآيات الدالة على الخلق مع بعضها نجد أنّ المعنى الأقرب لها من بين المعاني التي ذكرها المفسرون ما دلّ على حسن الخلقة والانتصاب أيضاً، فهو أكثر المعاني انسجاماً مع سلسلة الخلق المذكورة في الآيات، أمّا لو نظرنا إلى معنى المكابدة والمشقة لاستلزم التركيب أمرين:

- أن يدلّ الحدث على المحدث، فعندما نقول مثلا: عملت كذا في تعب، تكون شبه الجملة متعلّقة بالفعل (عمل)، وتبيّن حالة الفاعل أثناء العمل حتى أنجز عمله، ولا يفهم منها عودة المعنى على المفعول به، أمّا لو قلت: عملت كذا في إتقان مثلا، فتكون شبه الجملة المتعلّقة بالفعل، في دلالة على الإتقان الذي جاء به الفاعل، وانعكس على المفعول.
- أن يدلّ الحدث على السلبيّة، وعدم الجدوى من الجدّ، فالكبد نتيجة واجبة، وهذا ما لا ترمي إليه الآية، مقارنة مع بقية آيات الخلق، فالله لم يخلق الإنسان عبثاً، بل خلقه ليعمر الأرض ويعبده، وجلّ شأنه من أن يخلقه ليعذّبه في مكابدة الدنيا، من هنا يكون خلق الإنسان في كبد، أي: في استقامة وهيئة خاصة به، ليعمل عقله ويتدبّر.

أمّا إن كان المعنى الشدة والمشقّة، كما عرضه بعض المفسرين، فهو أيضا دالٌّ على خلقة مختلفة للإنسان عن الحيوان، فشدّته في معيشته المختلفة، بسبب هيئته المختلفة، فأفاد حرف الجر "في" بيان هيئة خاصّة للإنسان، تجعله مختلفاً عن هيئة الحيوان الشكليّة أولاً، ثمّ النفسيّة.

بعد أن عرضنا لمعاني لفظة (كبد) كما وردت في التفاسير، نرى أنّ أقرب المعاني لها هو ما استنتجناه من المعنيين الأول والثاني، فلم يخلق الله الإنسان ليعذّبه كما قلنا، ولو كان المعنى (في السماء) لأوجب الخصوصيّة، لأنه سيكون المقصود بالإنسان آدم، عليه السلام فقط، وكذلك الحال لمعنى القوة والغلظة، فهذا المعنى خاص لحادثة واحدة، كما سبق بيانه، وبالنظر في الآيات التي احتوت على الفعل "خلقنا" نجد معنى الصبر مستوحى من المعنى الأول، فعمارة الأرض والعبادة هي الهدف من الخلق، ولا يتحقّق هذا دون صبر وجدّ، فالمشقّة في العمل من أجل هذا الهدف، وليست المشقة عناء وتعباً لا يزول عن البشريّة، فمن ينشغل بتهذيب ذاته أولاً ثمّ بيته، ثمّ مجتمعه وأمّته لا بدّ سيجد صعوبات إثر هذا، وبتسلّحه بالإيمان سيذلّلها، وسيحقّق نجاحاته الخاصة الواحدة تلو الأخرى، فالكبد في معناه المجازي هنا هو الطريق التي يسلكها المرء، ليصل إلى نهاية النجاح، وليس في المسألة سوى تكريم لبني آدم، وتفضيلهم على غيرهم من المخلوقات، لذا كان المعنى الثاني أيضاً متناسباً مع المعنى الأول، فالاستقامة في الهيئة الخارجية تستوجب استقامة في النفس، ولم يخصّ الله سوى الإنسان بهذا، فيسّر له الهيئة الخاصّة به، وهيّأ له كل الخلق، كل هذا ليتفرّغ لعبادة الله، ويدرك الهدف من خلقه.

المصادر والمراجع

[١] ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد(ت٦٣٧ه/ ١٢٤٠م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دارنهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.

[٢] ابن الجزي، محمد بن أحمد بن محمد(ت ٧٤١ه/١٣٤٠م)، **التسهيل لعلوم التنزيل**، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ١٤١٦هـ .

[٣] ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي(٥٩٧هـ1201/)، **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ .

[٤] ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن(ت ٣٢١ه، 933م)، **جمهرة اللغة**، ٣ ج، حقّقه وقدّم له رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧.

[٥] أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى(٩٨٢ه - ١٥٧٤م)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[٦] ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (٤٥٨هـ، ١٠٦٥م) **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

[٧] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ .

[٨] ابن عطيّة، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (٥٤٢ هـ - ١١٤٨ م)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ .

[٩] ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥هـ، ١٠٠٤م)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

[١٠] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(٧٧٤ه — ١٣٧٢م)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٩م.

[١١] ابن منظور، محمد بن مكرم (٧١١ه — ١٣١١م)، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤ه.

[١٢] ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد (٧٦١ه- ١٣٥٩م)، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمدالل، دار الفكر: بيروت، ط٦، ١٩٨٥، .

[١٣] الإبياري، ابراهيم اسماعيل(١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م)، **الموسوعة القرآنية**، موسسة سجل العرب، ١٩٨٤م.

[١٤] الأزهري، محمد بن أحمد (٣٧٠ه، ٩٨٠م)، **تهذيب اللغة**، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ٢٠٠١م.

[١٥] الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، **كتاب خلق الإنسان**، تحقيق خضر عواد العكل، بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م.

[١٦] البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود(٥١٠ه - ١١١٦م)، **معالم التنزيل**، حقّقه وخرّج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان

مسلم الحرش، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

[١٧] الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف(٨٧٥ه- ١٤٧٠م)، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ ه.

[١٨] الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر (١٤٣٥ه - ٢٠١٤م)، **أيسر التفاسير**، المدينة المنور: مكتبة العلوم والحكمة، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

[١٩] الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (٣٩٣ه - ١٠٠٣م)، **تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

[٢٠] الحاكم، ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. المعروف بابن البيع(٤٠٥ه — ١٠١٥م)، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١ — ١٩٩٠م.

[٢١] حقّي، اسماعيل حقّي البروسوي(١١٢٧ه - ١٧١٥م)، **تفسير روح البيان**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٥٥م

[٢٢] الخميس، محمد بن عبد الرحمن، **أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة**، المملكة السعودية: دار الصميعي، ١٩٩٦م.

[٢٣] الدعاس، أحمد عبيد - حميدان، أحمد محمد - القاسم، إسماعيل محمود، **إعراب القرآن الكريم**، دمشق: دار المنير ودار الفارابي، ١٤٢٥ ه.

[٢٤] الرازي، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازى (٦٠٦هـ - ١٢١٠م)، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربى: بيروت، ط ٣، ١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠م

[٢٥] الرضواني، محمود عبد الرزاق، **أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة**، القاهرة، مكتبة سلسبيل، ٢٠٠٥م، جامعة الملك خالد: كلية الشريعة وأصول الدين، المكتبة الشاملة.

[٢٦] الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، (١٢٠٥هـ - ١٧٩١م) **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

[٢٧] الزجاج، أبو اسحاق ابراهيم بن السري، **رسائل في اللغة**، تحقيق ابراهيم السامرائي، بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٦٤.

[٢٨] الزحيلي، وهبة بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دمشق: دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٤١٨هـ

[٢٩] الزناد، الأزهر، **نسيج النص**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م.

[٣٠] الزيات، أحمد - مصطفى، إبراهيم - عبد القادر، حامد – النجار، محمد، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

[٣١] السامرائي، فاضل صالح، **لمسات بيانية**، أعده إلكترونياً أبو عبد المعز، عضو في ملتقى أهل الحديث، المكتبة الشاملة.

[٣٢] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (١٣٧٦ه – ١٩٥٧م)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

[٣٣] السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد، (٧٥٦هـ - ١٣٥٥م)، **الدر المصون في علم الكتاب المكنون**، تحقيق أحمد محمد الخراط، دمشق: دار القلم.

[٣٤] سنگلجي، شريعت المتوفى سنة (١٣٦٣ه - ١٩٤٤مـ)، **توحيد العبادة**، عناية وتحقيق: خالد بن محمد البديوي أشرف على الترجمة: عبد الله جمعة البلوشي، دار العقيدة للنشر والتوزيع ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

[٣٥] الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار (١٣٩٣ه — ١٩٧٣م)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م

[٣٦] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (١٢٥٠ه — ١٨٣٥م)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، مراجعة محمد الاسكندراني، أحمد ابراهيم زهوة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م.

[٣٧] صافي، محمود بن عبد الرحيم (١٣٧٦ه- ١٩٥٧م)، **الجدول في إعراب القرآن**، دمشق: دار الرشيد مؤسسة الإيمان، ط٤، ١٤١٨ هـ.

[٣٨] الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي أبو القاسم (٣٦٠هـ- ٩٧١م)، **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢م

[٣٩] الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي (٣١٠ه - ٩٢٣م)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة: بيروت، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ .

[٤٠] العثيمين، محمد بن صالح(١٤٢١هـ – ٢٠٠١م)، **القول المفيد على كتاب التوحيد**، المملكة العربية السعوديّة: دار ابن الجوزي، ط٢، محرم ١٤٢٤هـ.

[٤١] الفراهيدي، الخليل بن أحمد(١٧٠ هـ، ٧٨٦م)، **العين**، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، العراق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٤. وتحقيق عبد الحميد الهنداوي، بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٣.

[٤٢] الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(٢٠٧ه – ٨٢٢م)، **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتى، محمدعلى نجار، عبدالفتاح إسماعيل شلبى، مصر: دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة، ٢٠٠٢م.

[٤٣] الفيروزأبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب(٨١٧ه - ١٤١٤م)، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

[٤٤] الفيروزأبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز**، المجلس الأعلى للشؤون الاسلاميّة، ط٣، ١٤١٦-١٩٩٦م،

[٤٥] القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك(٤٦٥ه – ١٠٧٣م)، **لطائف الاشارات** وضع حواشيه وعلّق عليه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

[٤٦] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح (٦٧١ه - ١٢٧٢ م)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

[٤٧] الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر(٥٠٥ه – ١١١١ م)، **أسرار التكرار في القرآن**، تحقيق عبد القادر احمد عطا، القاهرة: دار الاعتصام، ط٢.

[٤٨] لجنة من علماء الأزهر، **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، مصر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، طبع مؤسسة الأهرام، ط١٨، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

[٤٩] النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (٧١٠ه - ١٣١٠ م)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، حقّقه وخرج أحاديثه يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له محيي الدين ديب مستو، بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

[٥٠] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي(٤٦٨ه – ١٠٧٥م)، **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشاميّة.

" Verily, We have created man in hardship ": A pragmatic Study.

Dr.. Riad Rizkallah Abu Hula
Professor of language and grammar assistant
Faculty of Arts – Department of Arabic Language
Hashemite University – Jordan

Dr. Nahla Abdul Aziz Al Shagran
Language and grammar teacher
Faculty of Arts – Department of Arabic Language
Hashemite University – Jordan

Abstract: This study investigates the meaning of the term kabad 'hardship' in verse (4) of Surat Al-Balad: laqadxalaqna l-ʔinsaanafiikabad 'verily, We created man into hardship'. To achieve this goal, the work examines resources of the Holy Quran interpretation and Arabic lexicons. The study has then linked the word with all verses which includes the verb xalaq-na 'we created' on the one hand, and describes their structures on the other. The study has also presented the interpreters' suggestions for the possible meanings, explaining the meaning that most of them agree upon in order to to weight the most appropriate meaning of the phrase: fiikabad 'into hardship'. The search over the best meaning was consequently based on the lexical intention and the structural analysis of all verses which contain the verb xalaq-na 'we created'.The study concludes with the notion that the expression under investigation more likely refers to creating man in the best stature (mould) as compared to the four-legged animals.

Keywords: kabad 'hardship', xalaq-na 'we created', interpretation, structure